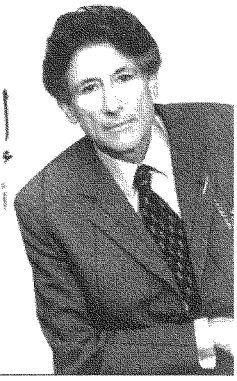

إدوارد سعيد
أثرُه في العالم... وفينا

إدوارد سعيد وكتابة تاريخ الشرق الأوسط

□ أسامة مقدسي

الحديث عن أثر إدوارد سعيد في كتابة تاريخ الشـــرق الأوسط يعني إدراكَ المفارقة المركزية والعنصر الأساسيّ في عمله. فسعيد لم يعلِّم أيَّ مساق في التاريخ العربيّ ولا في التاريخ الشرق أوسطيّ؛ ولم يَنَلْ شهادتَه في التاريخ ولا في الدراسات الشرق أوسطية. بل كَرَّسَ نفسَه، كما هو معلوم، أستاذًا للأدب الإنكليزيّ في جامعة كولومبيا. وهكذا قارَبَ حَقْلَ تاريخ الشرق الأوسط كهاوٍ delettante بالمعنى الحقيقيّ للكلمة: فَكَتَبَ، وحاضَرَ، وعَنَّفَ، وعَلَّمَ أجيالاً بكاملها من طلاّب تاريخ الشرق الأوسط (في الغرب أساسًا) لشغفه بتاريخ هذه المنطقة وثقافتها، لا لعلاقته المهنية بهما. ومن خارج هذا الحقل (بالمعنى المهنيّ الصرف) قام إدوارد سعيد بهجومه الشهير على القلعة الاستشراقية لدراسة الشرق الأوسط، وهو هجوم لم يكتفِ بأنْ فَتَحَ فضاءات أمام الأجيال التالية بل زلزل الحقلَ بأكمله زلزلةً عميقةً ودَفَعَ المنتسبين إليه والعاملين فيه إلى سجالٍ لاذع مازال محتدمًا حتى اللّحظة، وموضوعُه: كيف تمّ تمثيلُ تاريخ الشرق الأوسط وتاريخ العالم العربيّ وتاريخ الإسلام، وبأيّة معايير، واستنادًا إلى أيّ مرجع، وما كان ثمنُ ذلك؟

بصدور **الاستشراق** عام ١٩٧٨ تحدّى إدوارد سعيد، العالِمُ الإنسانيُّ، أمانةَ وموضوعيةَ ما وَصَفَه وصفًا شهيرًا بالثقافة الأكاديمية الاستشراقية للدراسات الشرق أوسطية. هذه الثقافة المرفَّهة جَسَّدَها بأقوى الأشكال البروفسور برنارد لويس. وقد اتَّهَم سعيد في **الاستشراق** (ص ٣١٥) هذا الأخيرَ بأنَّه يُضْمر «نوايا سيِّئة» لا لأنَّه واصَلَ التعتيمَ على أثر الاستعمار في التاريخ العربيّ والتاريخ الإيرانيّ فحسب، بل أيضًا لأنَّه رَفَضَ أن يأخذ في الاعتبار التأثيرَ العميقَ للاستعمار على تصوير الغرب للركود والانحطاط والطغيان في الشرق.

لم يَظْهر ذلك بأجلى صوره فظاعةً كما ظَهَرَ في حال فلسطين. كلُّنا نَعْلم طبعًا أنّ فلسطين تمّ استعمارُها من طرف الحركة الصهيونية. ولكنّ سعيدًا يبيّن في **مسألة فلسطين** (١٩٧٩) كيف استند نجاحُ الصهيونية لا إلى تنظيم الحركات الصهيونية الفائق وقوتِها العسكرية فحسب، وإنّما أيضًا وبشكلٍ حاسمٍ إلى قدرة القادة الصهاينة على المشاركة في السرديات الاستشراقية عن الشرق، وذلك عبر تمثيلاتهم وإيمانِهم بأنّ الصهيونية «رسالةٌ تمدينية» لأرضٍ كانت ستكون خرابًا لا أمل في علاجها. فقد وَضَعوا الصهيونيةَ، بوصفها جزءًا من التاريخ الأوروبيّ الديناميكيّ، في مقابلِ خَدَرٍ واستنقاعٍ شرقيَيْن يمثِّلهما ـ كما يَزْعمون ـ عربٌ متخلِّفون كسالى.

هذا وقد قام برنارد لويس هو الآخر، وكان أولَ الأمر راسخَ المكانة في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية (SOAS) في لندن قبل أن يَنتقل إلى دائرة دراسات الشرق الأدنى في پرنستون عام ١٩٧٤، بتشبيه سعيد بالمتعصِّب. ففي مقالةٍ عن **الاستشراق** نشرها في **نيويورك ريڤيو أوف بوكس** عام ١٩٨٢ اتّهم سعيدًا بأنَّه وَجَّهَ إدانةً غبية وشوفينية ومؤامراتية إلى التراث الثقافيّ الغربيّ الذي لا يَقْبل أبدًا (في رأي لويس) بأيّ تجريح. كما ردّ لويس على سعيد بسلسلةٍ ممّا زَعَمَ أنّه أخطاء في **الاستشراق**، متعمِّدًا إغفالَ الأطروحة الأساسية في هذا الكتاب: وهي العلاقة العميقة والمركّبة بين مَنْ يصوِّرون «شرقًا» مناقضًا لـ «غرب حرّ وحضاريّ وديموقراطيّ» من جهة، ومخطّطاتٍ غربيةٍ تَهْدف إلى السيطرة على العالم العربيّ واحتلالِه واستعمارِه من جهة أخرى. وبيْن سعيد ولويس ـ الأولُ كَتَبَ بأمانةٍ وإخلاص عن التاريخ العربيّ، في حين صَوَّرَ الثاني هذا التاريخَ للقرّاء الغربيين بشكلٍ يزداد مع الأيام خبثًا وبعدًا عن الأمانة ـ اندلعتْ حربٌ ضروسٌ منذ ذلك الزمن.

لكنْ في الوقت الذي قَلَّل فيه لويس من عَمَل سعيد مستخدمًا حججًا واهيةً، اعتَنَق سعيدًا وعملَه جيلٌ جديدٌ من دارسي الشرق الأوسط. والحقّ أنّ ثمة ثورةً فعليةً حدثتْ في كيفية مقاربة المراكز الأكاديمية الأميركية الرئيسة للشرق الأوسط نتيجةً لـ **استشراق** سعيد: فقد اتّسعت اتساعًا كبيرًا منظوراتُ الدراسات الشرق أوسطية ونوعيّتُها ومداها. وغدا عملُ سعيد أمرًا بدهيًا اليوم بالنسبة إلى معظم طلاب الشرق الأوسط الحديث. وبفضل عمل إدوارد سعيد تحوّلتْ كلمةُ «الاستشراق» نفسُها في الجامعات الأميركية، وفي ما يتجاوزها أيضًا، عن معناها القديم الذي يُفيد حقلاً من المعارف عن «الشرق» يُزعم أنّها بحثيةٌ

موضوعيةٌ، إلى وصفٍ مختزلٍ للعلاقة بين نظام القوة الغربيّ والمعرفة ـ وهي علاقةٌ بَرَّرتْ وعَزَّزتْ المشاريعَ الإمبرياليةَ الماضيةَ والحاضرةَ في الشرق الأوسط. علاوةً على ذلك، فإنّ كتّابًا عربًا وإيرانيين وأتراكًا يَكْتبون في الغرب ـ وكانوا في السابق هامشيين جدًا في إنتاج أبحاث عن تاريخ الشرق الأوسط ـ يَعْمدون بشكل متزايد إلى استخلاص تواريخهم الوطنية من أسر السرديات الغربية الاستشراقية. ولم يكن ذلك بالتأكيد بفضل **استشراق** سعيد فحسب (وقد أَتْبعه سريعًا بكتابيْ **مسألة فلسطين** و**تغطية الإسلام**)، بل أيضًا بفضل الثورات الثقافية التي اخترقتْ دراسةَ التاريخ وقادَتْها منظوراتٌ اجتماعيةٌ وجُنُوسيةٌ «وما بعد كولونيالية» جديدةٌ تحدّت التنظيرات الوضعيةَ والأوروبيةَ التمركزِ التي رأت إلى «الحداثة» عملاً من أعمال الغرب فقط، وإلى التاريخ نتاجًا من نتاجات النُّخَبِ وحدها. فمثلاً شَهدتْ دراسةُ التاريخ العثمانيّ في القرن التاسع عشر نهضةً فعليةً بعد أن حَرّرتْ نفسَها من سرديةٍ استشراقيةٍ تقول بـ «الانحطاط العثمانيّ،» واتّجهتْ إلى استكشاف تواريخ مدهشة في الحقبة العثمانية المتأخّرة. كما أنّ دراسة التاريخ الفلسطينيّ انتعش هو الآخر بعد ثقبِهِ الحجابَ الاستشراقيَّ الذي كان يعمّي الحَيَوات والاقتصاداتِ والسرديات، كاشفًا عن وجود ماضٍ فلسطينيّ نابضٍ بالحياة. وفي حين كان الباحثون الاستشراقيون قادرين ذاتَ يوم على الإعلان لبعضهم البعض عن استخفافهم الهائل بحقائق التاريخ العربيّ والأصواتِ العربية، اهتزّ اتّزانُهم إلى الأبد وتحطّمتْ هيمنتُهم. وليس أدلّ على ذلك من شراسة الهجوم الذي انصبّ على سعيد، وشراسةِ الاتهام الذي رُميتْ به «جمعيةُ دراسات الشرق الأوسط» (MESA) مؤخّرًا من قِبل أشخاص كدانيال پايپس ومارتن كرايمر وستانلي كورتز الذين زَعَموا أنّها جمعيةٌ «معاديةٌ للأميركان»!

وبكلمة، مُني الاستشراقيون بهزيمة، لكنّهم لم يَنْدحروا نهائيًا. والدليل **الأول** على ذلك هو أنّه على الرغم من كون إدوارد سعيد أزاح لويس من دوائر أكاديمية كثيرة، فإنّ هذا الأخير يواصل سيادتَه الظافرةَ على دوائر صُنع القرار الأميركيّ، بل زاد تأثيرُه في حقيقة الأمر بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١. ومازال لويس، وزملاؤه الاستشراقيون المتّقدون حماسةً أمثال فؤاد عجمي، يصوِّرون العربَ (لغالبية الأميركيين) بأنّهم أسرى ـ بطبيعتهم المتأصّلة ـ لماضيهم نفسه. ومازالوا يصرّون على أنّ المشاكل العربية المعاصرة، وهي حقيقية بلا شكّ، نابعةٌ من فشل العرب والمسلمين في التكيُّف مع الحداثة الغربية. ومازالوا يتجاهلون عمدًا التاريخَ المروِّعَ والمتواصِلَ للعنف والاستعمار الغربيّ والإسرائيليّ، فيدغدغون أحكامَ جمهورهم المسبَّقة بأن يُخْبروا القراءَ في الغرب أنّ البلوى العربية بلوى عربيةٌ لا غير: خُلِقتْ وتستمرّ من قِبل العرب وبسبب العرب. أما الدليل **الثاني** على أنّ الاستشراقيين لم يَنْدحروا نهائيًا فهو أنّ الديكتاتوريات العربية المذهلة في قمعها وطولِ عمرها فاقت كُلَّ الخطابات المعادية للعرب ـ كتلك التي دبّجها أمثالُ برنارد لويس ـ في تبرير التحليلات الاستشراقية للعجز العربيّ المتأصّل عن اعتناق الديموقراطية.

وخلافًا لتركيا على سبيل المثال التي التزمتْ جديًا برفع هيبة التاريخ التركيّ في بلادها وفي الغرب (وإنْ بأَجَنْدةٍ قومية وكمالية خاصةٍ بها بالتأكيد)، وقَدَّمتْ في العقديْن الأخيريْن ستة كراسٍ مخصّصة لتعليم التاريخ التركيّ والعثمانيّ في پرنستون وهارڤرد وشيكاغو وإنديانا وجورج تاون وجامعة پورتلاند الرسمية ـ أقول خلافًا لتركيا، لم توظِّف الحكوماتُ العربيةُ شيئًا تقريبًا لصالح التاريخ العربيّ والمؤرّخين العرب (لا في الولايات المتحدة ولا في العالم العربيّ نفسه). وإنّه لمِنَ المحزن حقًا أن نتأمّل المؤرّخين العرب الذين يكتبون بالعربية وهم يتخلّفون عن نظرائهم في الغرب. ومن المحزن أيضًا أن نرى أنّ الدراسات التاريخية العربية المكتوبة في العالم العربيّ لا تَتْرك أثرًا فعليًا في الغرب على كتابة التاريخ العربيّ التي تزداد حيويةً هناك، وبخاصةٍ في الولايات المتحدة. وبعبارة أخرى، هناك فشل ذريع للمشروع العربيّ وللحكومات العربية. ويتجلّى ذلك في الاستثمارات التي تقدّمها الجامعاتُ الأميركية لدراسة التاريخ العربيّ والإسلاميّ، وهو ما يَجْذب بدوره الطلابَ العربَ إليه برغم المناخ الذي يزداد عداوةً للعرب في الولايات المتحدة. ولهذا، في خاتمة المطاف، أثرٌ عميق في

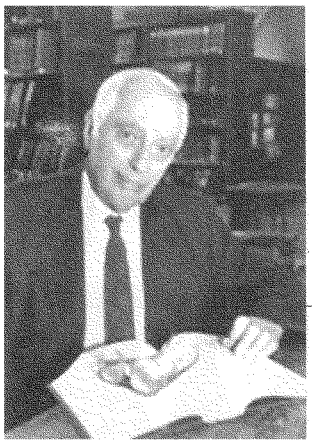

سعيد أزاح برنارد لويس من دوائر أكاديمية كثيرة، ولكنّ لويس يواصل سيادته على دوائر صنع القرار الأميركي

مسألة التمثيل representation التي اعتنى بها سعيد بشكل أساسيّ. إذ مَنْ تراه في النهاية يمثِّل التاريخَ العربيَّ في عالمٍ عربيٍّ تردّد حكوماتُه أكثرَ الشعارات اللاتاريخية عبثًا، وتَرْفض فتحَ الأرشيف أمام الباحثين، وتمارس الرقابةَ على الصحافة، ولا تروِّج التاريخَ العربيَّ بأيِّ طريقةٍ ذاتِ معنًى؟

يقودنا هذا، من ثمّ، إلى مشكلةٍ ملحّةٍ أخرى ناقشها سعيد مرارًا في كتاباته ومحاضراته، ألا وهي عجزُ الباحثين العرب عن التفكير بتاريخهم تفكيرًا مقارنًا. فلو تَركنا جانبًا الوضعَ البائسَ الذي يجد فيه التأريخُ العربيُّ نفسَه، فليس ثمة فعليًا أيُّ فهم عربيّ للتاريخ الغربيّ باستثناء خطوطٍ عامةٍ بالغةِ الهزال، يرافقها فهمٌ هزيلٌ أيضًا للأسباب التي جعلتْ إدوارد سعيد تلك الشخصيةَ العامة التي كانَها. إنّنا في العالم العربيّ نَنْدب إدوارد سعيد، ولكنْ هل يَفْهم أكثرُنا حقَّ الفهم الثورةَ التي جَسَّدها في تمثيل الشعوب والقضايا، وحَثَّ الآخرين على الانخراط فيها؟ فإدوارد في النهاية حكى للقرّاء الغربيين حكايةً عنهم هُمْ، ومن ثم استطاع أن يكرِّس نفسَه مرجعًا للحديث عن الغرب بسبب شغفه العميق ومعرفته العميقة ـ كما ذَكَرْنا ـ بالأدب والتاريخ في الغرب. ومن موقعه هذا تحديدًا استطاع ونَجَحَ في أن يمثِّل تاريخَ الفلسطينيين والعرب أمام أميركا. كان دائمًا يَعْرض كُلاً من التاريخ الغربيّ والعربيّ لجمهور غربيّ وعربيّ معًا. وهذا هو تراثُه الأعظم. فإدوارد لم يتخلَّ قطّ عن إدراكه لمركزية الموقع والمنبر في الجامعات الأميركية، ولقدرة ذلك على تغيير الطريقة التي يرى بها الأميركيون العالَمَ. كما أنّه لم يتخلّ عن إيمانه بوجود تاريخ عربيّ، وحكايةٍ عربية، وسرديةٍ عربية ينبغي سردُها. وبشكلٍ أكثر تحديدًا حَثَّ إدوارد كلَّ مَنْ يدرس الشرقَ الأوسط من جيلنا على أن يكون مدركًا للعلاقة بين العالم الغربيّ، والنصّ العربيّ، والناقد. وفوق ذلك كلّه كان إدوارد سعيد مثالاً يُحْتذى على كيفية استخدام هذه العلاقة من أجل تطوير معرفةٍ إنسانيةٍ بالماضي... خدمةً لهموم الحاضر الملحّة.

هيوستن

أسامة مقدسي